الفصل التاسع

فى غيبة التشريع الإسلامى

هذا الإسلام الذى نشأت عليه والذى أحمد الله حمدًا جزيلا على هذه النعمة الكبرى التى لا تعدلها نعمة ، قد طبق وخرج عن أن يكون مجرد مبادئ إلى أن أصبح واقعًا ، فأنتج بعقائده ، وأخلاقه وتشريعه خير أمة أخرجت للناس ، واستمر الإسلام يطبق التشريع الإلهى المعصوم عدة قرون ، إلى أن أنشئ فى مصر ماسمى بالمحاكم المختلطة ، وتخلت فيها عن التشريع الإسلامى ، وفى هذه الفترة بالذات بدأ الاحتلال وبدأ التخلى كلية عن التشريع الإسلامى ، فإنه حينما احتل المستعمرون أرض الإسلام بدءوا يهدمون كل مايقوى الشعور الإسلامى فى النفوس ، ومن أجل ذلك غيروا القوانين الإسلامية ، وأتوا بقوانين أوربية ، ألزموا بها أهل الأوطان المحتلة ، وأتوا بقضاة من بلادهم يحكمون بقوانينهم ، وينشرون تشريعهم ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما أنشئوا مدارس لتعليم القوانين الأوربية ، وأصبحت هذه المدارس كليات حينما أنشئت الجامعات ، هى : كليات الحقوق ، وهذه الكليات تدرس القوانين الأوربية ، وتنفق عليها الدولة لتخرج قضاة ووكلاء نيابة ومحامين تخصصوا فى التشريع الأوربى ، واستمر الأمر كذلك السنين الطويلة ، فبدا على مر الزمن وكأنه أمر طبيعى ، وأصبح انفصال المسلمين عند شريعتهم ، وإحلال شريعة أوربا محلها

امرًا عاديًا ، ولا يجدون غضاضة فى إنفاق الأموال الطائلة على كليات تفصلهم عن تشريعهم الإسلامى ..

وما من شك فى أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم أيام أن كان الاستعمار جاثمًا على صدور الأمم الإسلامية يأمر فيها وينهى ، ولكن الاستعمار قد خذله الله وانهزم ، ورجع المستعمرون إلى بلادهم ، وكان من الطبيعى أن يزيل المسلمون آثار الاستعمار فى : التعليم الذى وضع المستعمر برامجه لتخرج مجرد موظفين ..

وفى اللغة التى كان يحاول أن يقضى عليها كما فعل فى الجزائر ..
وفى الأخلاق التى حاول أن ينزل بها إلى مستوى لا تنهض معه أمة ...
وفى التشريع الذى جعله أوربيًا وأحله محل شريعة الإسلام .

ومهما تكن مقاومة آثار الاستعمار فى ميادين مختلفة مما أفسده ، فإن مقاومة هذه الآثار وإزالتها فى مجال التشريع ، لا نجد لها أثرًا فى وزارات العدل فى مختلف الأقطار الإسلامية ، ولا نجد لها أثرًا فى دوائر القضاء ..

ومن سخرية الأقدار أن يقول قائل : وأين القانون الإسلامى الذى نحكم به ؟

إن القانون الإسلامى فى كتب الفقه الإسلامى ، وكتب الفقه هذه ، كتب عربية ألفاظها عربية ، وجملها عربية ، وخطها عربى ..

ولقد وصل الأمر بالاستعمار أن صاغ خريجى كليات الحقوق ، بحيث لايفهمون بعد الليسانس كتابًا عربيًا فى المواد التشريعية ، وليس الأمر بغريب ؟ ..

أتدرى أيها القارئ الكريم أن جدول التدريس فى كليات الحقوق ،

يخصص عشرين محاضرة فى الأسبوع للقوانين الأوربية ، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية ؟ ...

أترى لو أنشئت هذه الكليات فى فرنسا ، أو فى إنجلترا ، أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟ وهذه الكليات هى السر فى تخلفنا فى مجال التشريع ، وذلك لأنها دفعتنا بالتبعية للمشرعين الغربيين ندور فى فلكهم ، ونسير على خطواتهم ...

والتشريع الإسلامى من مفاخر الحضارة الإسلامية ، ورجال من نوابغ المفكرين فى العالم ، لكننا الآن – بعد ذلك النبوغ وتلك العبقرية – قد أصبحنا أتباعًا مقلدين ...

وهذا للموضوع أطرحه أمام القادة ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا فيما يتعلق بهذه الكليات ....

ولكن السؤال الملحّ الذى يطرح نفسه بعد ذلك ، هو ماحدث فى غيبة التشريع الإسلامى ماذا حدث ؟ شر كله ...

وإننى حينما أتحدث عن فترة غيبة التشريع الإسلامى التى مازالت مستمرة ، لاأتحدث عن مصر وحدها ، وإنما أتحدث عن كل الدول التى غاب عنها التشريع الإسلامى ومازال غائبًا ..

أتحدث عن كل من الدول التى تنتسب إلى الإسلام ، وقد ألغت شريعة الله فيها . ماذا حدث فى غيبة التشريع الإسلامى ؟

١ – حدث كل هذا الرجس الذى نراه ونشاهده أينما سرنا :

فى المعاملات ، وفى السلوك ، وفى العقيدة ، وفى الاستهتار بالقيم الدينية استهتارًا بلغ من شأنه أن أصبح الإلحاد فى دين الله من الأمور التى تمر

فلا تسترعى الانتباه ؟ الإلحاد فى دين الله كفرًا وارتدادًا . والإلحاد فى دين الله استهتارًا بالقيم الدينية ...

٢ – والإلحاد فى دين الله جدلا فى الحدود القاطعة التى فرضها الله عقابًا على الجرائم . وإذا أخذنا الآن بعض الأمثلة فإننا نقول :

إن قطع يد السارق أمر فرضه الله لا خلاف فيه . وهو علاج ناجع ضد السرقة ، ويكفى أن يرى الناس الجد فى التنفيذ ، يكفى أن تقطع يد سارق أو اثنين أو عدد لا يصل إلى أن يعد على أصابع اليد ، فتمتنع عن السرقة نهائيًا .

وقد تمر أعوام لا تقطع فيها يد . وذلك أن « طابع الحد » يجعل كل من تسول له نفسه السرقة ينظر إلى يده فيتخيلها مقطوعة . فيرهب ويهرب عن مجرد التفكير فى الأمر ...

ولكن ذوى التفكير المنحرف . يهرجون بأن الأيدى سيقطع كثير منها فتكون البطالة ، وتقل الأيدى العاملة ، ويقل الإنتاج ، ويستمرون فى هذا التهريج كلما دعا داع إلى كتاب الله ..

وفى غيبة التشريع الإسلامى أنشأت الدول المستعمرة فى بعض الأقطار الإسلامية مزارع ومصانع لإنتاج الخمور ، والخمر على حد الوصف فى القرآن :

(رجس من عمل الشيطان) ..

قليلها حرام ، وكثيرها حرام ، واتخاذها كدواء حرام ، فما جعل الله دواء أمتى – كما قال رسول الله ﷺ – فيما حرم عليها ... وقد ذهب الاستعمار إلى غير رجعة ، وكان من الواجب على هذه الدول أن تغير الوضع الاقتصادى فيها على المزارع والمصانع التى أعدت من قبل لإنتاج الخمر .. فلابد من تحريم ما وصفه الله بأنه رجس من عمل الشيطان فى كل الدول الإسلامية ..

٣ – وفى غيبة التشريع الإسلامى ، كان هذا الطوفان من العرى ، ومن فتنة الجنس ، ومن هذه الأفلام التى تثير الغرائز وتفسد الشباب ، والتى تنفق عليها الدول أموالا طائلة وتخسر الملايين فى سبيل ذلك ....

ومن المصائب التى تبكى ، أن يفكر فى إنشاء المسارح فى الأحياء الدينية ، وفى شهر رمضان وكأن إنشاء مسرح للمطربين والمطربات و ... و ... من صميم الدين ؟ وكان الأولى أن يقام سرادق للقرآن أو الدعوة الإسلامية فى المناسبات الدينية ، وفى كل الأوقات .

٤ – وفى غيبة التشريع الإسلامى كان الربا ، وكثرت الرشوة والاختلاسات ، وكان كل هذا الرجس الذى تعيش فيه بعض الأقطار وللنظر إلى كلمات الله تعالى ، فنجده سبحانه يقول :

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمـا أَنْزلَ اللهُ فَأولئِكَ هُم الظَّالِمُونَ) .

ويقول : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمـا أَنْزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الفاسِقونَ) ...

ويقول : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمـا أَنْزَلَ الله فَأولئكَ هُمُ الكافِرونَ)

ويقول : (فلا وَربك لايؤمِنُون حَتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجدُوا فى أَنْفُسِهم حَرجًا مِمَّا قَضَيْت ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

والواقع أن الحكم بما أنزل الله هو إقامة حدود الله ، والله سبحانه وتعالى يقول فى الصفات عن المؤمنين : (والحافِظُونَ لِحُدودِ الله)

وحفظ حدود الله ، وإقامة حدود الله - إنما هى لكل إنسان بحسب موقعه فى المجتمع ...

فإذا ما طبق المجتمع حدود الله والتزمها ، فإن الله سبحانه يمده بنصر دائم ، وهو سبحانه يمد بهذا النصر الفرد إذا التزم حدود الله ، ويمد به المجتمع إذا طبق حدود الله : وقد أبان الله سبحانه وتعالى ذلك ، إنه سبحانه يقول :

(ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُم فى الأرْضِ أقاموا الصَّلاةَ ، وآتوا الزَّكاة ، وأمَرُوا بِالمَعْروف وَنَهوا عن المُنْكَر ، ولله عَاقِبةُ الأمورِ) ..

أما دوام النصر فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا) .

وما من شك فى أن النصر من عند الله وحده :

(وماالنصر إلا من عند الله) .

وما من شك فى أنه إذا نصر الله فلا غالب لمن نصره :

(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) ..

ولقد وضع سبحانه قوانين للنصر ، ووضع قوانين لدوام النصر ، وكلها تتركز فى طاعته فيما أمر ، وفى الانتهاء عما نهى ..

أيها الإخوة المؤمنون ، إن قوله تعالى :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) ..

يجب أن يدوى دائمًا فى آذاننا ، وأن يكون دائمًا على ألسنتنا ، وأن تمتلئ به قلوبنا وأن نحقق التقوى ...

وإن الذين يحبون أن يكونوا فى عداد من رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لن يصلوا إلى هذا الرضوان إلا إذا عملوا على نشر كلمة الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، والطريق أمامهم مفتوح للعمل والنشاط ..

ويكفى إرادة الخير ، ونية الخير ، ليصلوا إلى مرضاة الله ، وليكونوا فى زمرة من رضى الله عنهم ورضوا عنه ويكونوا من حزب الله .

(ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

وبعد :

فلا ريب فى أن جهادنا المقدس للنهوض بالمجتمع ، كل ذلك لم يفته بعد ، ومن أجل الوصول بجهادنا إلى غايته التى نرجوه لها ، وهى تطبيق الإسلام بجميع كلياته وجزئياته ، يجب على كل منا أن يتحمل مسئوليته فى ذلك بحسب موقعه فى المجتمع .

إن القرآن الكريم يستعمل مادة « أمر » حينما يتحدث عن مسئولية كل منا تجاه المجتمع الإسلامى :

(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) ..

والرسول ﷺ يستعمل « أمر » كذلك .... عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » ...

(رواه الترمذى وحسنه)

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :

« مامن نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف عن بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، وما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » ..

فإذا ما تحمل كل منا مسئوليته بحسب موقعه فى المجتمع ، عاد أمر الأمة الإسلامية إلى ماكان عليه : قوة وعزة ومرضاة لله تعالى ولرسوله ﷺ .

خـــاتمـــة

فى أسس النهوض بالمجتمع الإسلامى

إلى أين نتجه ؟
ماهو الطريق ؟
كيف نبنى أمتنا ؟
كيف ننهض بوطننا ؟

هذه الموضوعات فرضتها ظروف الأمم الشرقية التى تحررت من الاستعمار . وقد تحدث عنها الكثير من الكتاب ، والمفكرين ، والمحاضرين فى بلادنا .

وكانت الأفكار تأتى دائمًا مرتبطة بأوربا ، فكان بعضهم يعلن فى صراحة لاخفاء فيها :

أن الطريق هو أن نتبع أوربا خطوة بخطوة ، وأن نسير على نسقها ، إنها حضارة أثبتت جدارتها وتغلبت وأصبحت مسيطرة . فإذا أردنا أن ننهض بأمتنا ، فما علينا إلا أن نسير بحسب هذه التجربة التى سارت فيها أوربا ، فكانت حضارتها مسيطرة غلابة متفوقة .

ويأتى آخرون يقولون فى صراحة لا لبس فيها أيضًا : إن هذه الحضارة أشقت الإنسانية . هذه الفكرة نفسها - كونها أشقت الإنسانية - أعلنها بعض

الأوربيين أنفسهم. إن الحضارة الأوربية أشقت الإنسانية. هذه الحروب المتوالية ، هذا الدمار المخرب ، هذا الامتصاص لدماء الشعوب الذى تفعله الحضارة الأوربية ... إنها لم تدع بيتا ليس فيه مأتم ، ولا قطرًا هادئًا ، ووسائل الدمار والخراب والتنكيل التى تخترع كل يوم فى صور رهيبة ... إن كل ذلك يفرض علينا فيما رأى هؤلاء أن نرفض هذه الحضارة ، نرفضها كلية ، وإذا كان الألوف يريدون أن يقبلوها موضوعًا وأسلوبًا ، وعلمًا ومنهجًا ، فإن هؤلاء الآخرين يحبون أن يرفضوها موضوعًا ومنهجًا وأسلوبًا ، ولكن كيف يتأتى ذلك؟ أيتأتى أن تقطع صلتك بالطائرات ، بالمواصلات ، بالصيدلة ، بالطب ، بالهندسة ، بالزراعة ، بهذه الآلات التى تخترع كل يوم ، بالأدوية . . . إن ذلك إذا نظرنا يمينًا أو يسارًا نجده فى كل بيت ، وفى كل شارع ، وفى كل بلد ، وفى كل حى ، وفى كل مدينة .

ففكرة رفض الحضارة الأوربية ، تعتبر عادة فكرة تشبه أن تكون مستحيلة ، وهى على كل حال غير منطقية ويتناقض الرأيان : الرأى الذى يقبلها ككل ، والرأى الذى يرفضها ككل ، وينبع عن ذلك رأى ثالث ، كان عادة هو الرأى الذى ينال الاستحسان ، والذى يستسيغه المجتمعون أو القارئون للمقالات .

هذا الرأى الثالث يقول : إن الحضارة الأوربية فيها الصالح وفيها الطالح ، وفيها السيئ وفيها الحسن ، وينبغى ، إذن ، إذا أردنا أن نهض مستفيدين بتجارب الغرب ، أن نكون ناقدين لتجارب الغرب ، فاحصين لتجارب الغرب ، مختبرين لتجارب الغرب ، وينبغى أن نأخذ من هذه الحضارة الأوربية الصالح منها ، ونترك الفاسد منها .

وكان هذا الرأى يسود بعد أن ترفض الآراء الأخرى . والحق أنك حينما تقول نرفض الحضارة الأوربية ، فإن ذلك يعتبر نوعًا من الخيال ، لأنها متغلغلة فى كل مكان ، وإذا قلت نأخذ بالحضارة الأوربية فقد ألغيت ذاتيتك ، وأنهيت رسالتك وأصبحت مسمارًا فى عجلة أوربا ، وهذا مالا يرضاه مسلم ولا مفكر شرقى أو إسلامى ، وذلك مع الأشياء الأخرى ، من وسائل الدمار والهلاك والشقاء ، الذى أوجدته الحضارة الأوربية وكانت السبب فى رفض هذا الرأى . ولايبقى إلا الرأى الثالث الذى ينادى بأخذ الصالح وترك الفاسد من الحضارة الأوربية . وماذا يمكن أن تقول لشخص يقول لك تعال ندرس ، وتعال نستفيد من هذه الحضارة فنأخذ بالصالح ونترك الفاسد ؟ أتقول إن رأيه غير رشيد ؟ أتقول إن رأيه فاسد ؟ إنه يدعوك للأخذ بالصالح وترك الفاسد . ومع ذلك فإنك إذا فكرت فى هذا الرأى ربما وجدته أضعف الآراء مع هذه الوجاهة كلها ، ومع هذا المنطق الذى يراه الكثيرون معقولا ، إذا فكرت فيه ، ربما وجدته أضعف الآراء .

الرأى الأول : الأخذ بالحضارة الأوربية — رأى جرىء يجابه الجو الإسلامى فى جرأة ، بل فى نوع من الوقاحة لايبالى صاحبه بالرأى العام .

والرأى الثانى : رأى جرىء أيضًا صاحبه صريح شجاع ، يجابه الرأى العام فيما يتعلق بهذه الحضارة ؛ ولقد حاوله من قبل غاندى مثلا ، حينما بدأ يغزل ليتخلى عن الملابس التى تنسج بالآلات الأوربية ولكنه لم ينجح ، والهند الآن سائرة فى طريق هذه الحضارة .

لكن الرأى الثالث : وهو الرأى المتوسط . إنه ككل الآراء المتوسطة .

والآراء المتوسطة عادة آراء الضعفاء . هذا الرأى المتوسط ماهى مساوئه ؟ ماهى مفاسده ؟

أولا : الإقرار بشرعية تقليد الحضارة الأوربية . وهذا مالا يرضاه مسلم ، وحتى حينما تقول بتقليدها فى الصالح ، فهذا مالا يرضاه مسلم أيضًا . لا يرضى مسلم أن يفرض على العالم الإسلامى نوعًا من الشرعية فيما يتعلق بأخذه للبعض ، ولو للبعض فقط .. هذا من جانب أنك تفرض على نفسك التقليد وتحكم على نفسك بأن تكون مقلدًا باستمرار ، وتحكم على نفسك مهما كان الأمر فى الاختيار ، تحكم على نفسك أن تكون سائرًا فى ركاب « الصالح » ، كما تقول ، من الحضارة الأوربية .

أين أنت ؟ أين شخصيتك ؟ أين ذاتيتك ؟ هذا أمر . الأمر الثانى : هو أننا بمجرد أن نبدأ فى الاختيار استحال هذا الاختيار . استحال ، لأن الناس يختلفون أمزجة وأهواء ومشارب . والأمر – أمر الاختلاف – فى غاية الوضوح .

نأخذ مثلا الاستحمام على الشواطئ . سيقول قوم إنها صحة ورياضة . وسيقول قوم إنها رجس من عمل الشيطان ، ولا يتأتى مطلقًا أن يستسيغ المسلم أن يذهب إلى الشاطئ ويكشف عورته ، أو أن تذهب زوجته أو ابنته أو أخته إلى الشاطئ وتكشف عورتها ، سيختلفون ، أنصار الشيطان سيقولون إنه مستساغ ، وأنصار الرحمن سيقولون إنه ليس بصالح .

الاختلاط ، اختلاط النساء بالرجال : سيقول قوم إنها حضارة وتقدم ومدنية ، وسيقول قوم إنها فساد ورجس .

فائدة البنوك ، سيقول قوم إنها عمل اقتصادى سليم سار عليه الاقتصاد الأوربى وما زال يسير ، وسيقول قوم إن الفائدة ربًا وهى إذن محرمة . وتعال إلى

أى موضوع من الموضوعات النظرية هذه ، فستجد الاختلاف بين الفريق الذى يقبل ، والفريق الذى يعارض .

ورقص المخاصرة ، يمارسه قوم ويستسيغونه ، ويلغيه آخرون ، كعامل من عوامل إثارة الشهوات ، ويرون فيه إيضًا انتهاكًا للعرض واضحًا .

الاتفاق إذن على الصالح : على كونه صالحًا ، وعلى الفاسد : على كونه فاسدًا ، لن يتأتى ، والآراء كلها إذن تنهار أمام النقد وتختلف فيها . ماهو الطريق إذن ؟ أليس هناك إلا أن نأخذ بالحضارة أو نرفض الحضارة ، أو نتوسط فنأخذ بالصالح ونرفض الفاسد ؟ وصلنا إلى طريق مسدود ، وكان لابد من أن نصل إلى الطريق المسدود ، لأننا لم نتجه الاتجاه السليم فى الموضوع . إننا نسينا إسلامنا وحضارتنا وثقافتنا ودیننا . نسينا كل ذلك واتجهنا مباشرة إلى أوربا . ولو تساءلنا من المبدإ :

ماهو المنهج الإسلامى فيما يتعلق بالنهضة . ماهى الطريقة الإسلامية فيما يتعلق بالنهضة ؟

إننا فى حضارة معينة ، فى دين معين ، فى ثقافة معينة ، فَلِمَ نترك كل ذلك ونذهب متسائلين فيما يتعلق بأوربا : ماهو ارتباطنا بها ؟ نأخذ حضارتها ، نتوسط فى الموضوع . كل ذلك لم يكن الوضع الصحيح أو الوضع السليم للمشكلة ، وإنما الوضع الصحيح ، أو الوضع السليم للمشكلة هو :

ماهو المنهج الإسلامى ، أو المنهج القرآنى ، أو المحمدى ، فيما يتعلق بنهضة الشعوب الإسلامية ؟

وإذا جئنا إلى هذا المنهج فستجده بإذن الله واضحًا ، سهلا ، ميسرًا . إن أول كلمة فى الوحى . إن أول كلمة على الإطلاق هى « اقرأ » . وهذه الآيات

الكريمة الأولى من الوحى فيها : القراءة ، وفيها العلم والتعليم ، وفيها القلم . والأمر فى غاية الغرابة فيما يتعلق بدين من الأديان ، لايبدأ بإثبات وجود الله أو الحديث عن الوحدانية مباشرة والاستفاضة فى ذلك وإنما يبدأ بالعلم ، بالقراءة ، بالكتابة ، بالقلم ومايسطر به . كل هذا كان ابتداء الرسالة الإسلامية . ابتدأت الرسالة الإسلامية باقرأ ، بدأت بالعلم ، وكان أول قسم أقسم الله سبحانه وتعالى به ، كان بالقلم ومايسطر بالقلم . ثم تستفيض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية حاثة على العلم موجبة له ، فارضة له ، باعثة عليه . تتحدث الآيات القرآنية عن العلم بالقصص ، وتتحدث عن العلم بالأسلوب المباشر .

من القصص الموجه مباشرة إلى التربية ، والذى تستفيد منه التربية مباشرة ، وكأنه موجه إليها ، أن سيدنا « موسى » عليه السلام يجلس بين قومه ، فيقول له أحدهم : هل هناك من هو أعلم منك ؟ فيقول : كلا ، ويعاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك . إن الشخص الذى ينتهى به الأمر إلى أن يعتقد أنه لا أعلم منه فى الأرض ، يجمد على وضع معين ، وينتهى فى العلم إلى حد محدود ، ويمكث هكذا لايزداد ، يأخذه نوع من الاكتفاء ، فيصبح كالماء الراكد لا يسير . ويقول له الله سبحانه وتعالى يخبره أن هناك عبداً من عباده يعلم ما لا يعلمه « موسى » . يجوز أن يكون جاهلا ببعض ما يعلمه « موسى » ، ولكنه على كل حال عنده علم ، نوع من العلم ليس عند « موسى » عليه السلام .

ويأتى « موسى » بفتاه ويقول له : (لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) ، لابد أن أقابل هذا العبد من عباد الله ، ولو مكثت فى السفر دهورًا وأحقابًا ، ويأخذ موسى فتاه ويسافران سفرًا مجهدًا يقول عنه موسى : (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) ، ويلتقى بهذا العبد ،

والتعبيرات القرآنية فى هذا اللقاء فى غاية الدقة . إنه يبدؤه بقوله : (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) كلمة هل هنا ، ألغت شخصية « موسى » أنه عليه السلام بدأ بكلمة : هل ولم يقل إنى أريد ، وإنما قال : هل ، ثم يتبع كلمة هل كلمة أتبعك ، لم يقل أصاحبك أو أرافقك أو أزاملك ، وإنما قال أتبعك .

كلمة « هل » وكلمة « أتبعك » ، فى غاية الدقة فى موقف التلميذ من الأستاذ . وما كان « موسى » فى هذه الفترة التى يقضيها مع الخضر إلا تلميذًا مع أستاذه : (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِى مِمَّا عُلِّمْتَ رشْدًا ؟) .

ولم يترفق الأستاذ به ، مع إلغاء الشخصية ، ومع التبعية لم يترفق به ، إنما قال له رفضًا يشبه الحث ، أو حثًا هو فى صورة رفض (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِى صَبْرًا) ، ويبين له بهذا الموقف أن العلم ، فى حاجة إلى صبر ، وأن من ليس بصابر ، لا يتأتى له مطلقًا أن يصل فى العلم إلى درجات المخترعين ، أو المبتدعين ، أو كبار المثقفين (إنك لن تستطيع معى صبرًا) ، وكأنه يقول له نحن فى ابتداء الطريق وأنا أشترط الصبر ، فإذا كان عندك الإرادة العازمة على الصبر فعرفنى بذلك ، ولم يكن هذا رفضًا صريحًا . ويقول له « موسى » فى أسلوب التلميذ المتواضع ، التلميذ الصادق التلمذة (سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا) ويضيف « موسى » من عنده أمرًا آخر هو من الضرورات المطلقة فيما يتعلق بالتلمذة أيضًا (ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصِى لك أمرًا) عدم عصيان أمر الأستاذ (ولا أعصى لك أمرًا) والأستاذ الذى نتحدث عنه ، هو من توافرت فيه شروط الأستاذية .

ويقول له العبد الصالح غير مترفق أيضًا ، يقول له : (فإن

اتبعتنى ...) لم يقل فإن رافقتنى أو زاملتنى أو صاحبتنى وإنما قال : (فإن اتَّبَعْتَنِى فلا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) ، لا تسألنى عن شىء لأن الأستاذ الجدير بالأستاذية يستفيض حينما تكون هناك ضرورة للاستفاضة ، ويوجز حينما يقتضى الأمر الإيجاز ، بل يسكت حينما يقتضى الأمر السكوت ..

من الأشياء المعروفة أن « أفلاطون » مثلا كان له درسان ، درس عام للجمهور ، ودرس آخر لخاصة تلاميذه . فى هذا الدرس الآخر ، كان أحيانًا الدرس من أوله إلى آخره صمت ، لا كلمة فيه . وإنما يطلق أفلاطون فى المبدإ كلمة من الكلمات ليفكروا فيها ، كلمة الشجاعة ، كلمة الفضيلة ، كلمة العفة ، كلمة من الكلمات ليفكروا فيها ، ويتركهم يفكرون طيلة الدرس ، وينتهى الدرس دون أن يقول « أفلاطون » شيئاً . وكان هذا الدرس ، درس خاصة تلاميذه ، وليس درس الجمهور . أما درس الجمهور ، فإنه كان يتحدث فيه على سجيته ، إن القرآن يتحدث عن العلم فى صورة قصص ، عن العلم الذى يربى ويهذب ويوضح القرآن المعالم ، والصلات بين الأستاذ والتلميذ ، ويتحدث عن قوة العلم ، وإلى أى مدى يمكن أن يصل العالم فى القوة ، فيتحدث فى قصة أخرى :

يجلس « سليمان » عليه السلام بين قومه ويأخذون فى الحديث عن « ملكة سبأ » . ويقول « سليمان » : (أيكم يأتينى بعرشها) ؟ ويخاطبه (عفريت من الجن) فيقول له : (أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) ، ويستبطئ « سليمان » الأمر (قبل أن تقوم من مقامك ؟) ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات . يستبطئ « سليمان » الأمر ، إذ يجوز أن يمكث « سليمان » فى

المجلس ثلاث ساعات أو أربع ساعات ، ويسأل من جديد ؛ فيقول الذى عنده علم من الكتاب : (أنا آتيك به قبل أن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) ، وهنا كلمة (علم من الكتاب) « تنفى المعجزة » علم من الكتاب ، إنه يحدد : من (الكتاب) ، فهى تنفى إذن المعجزة ، إنها صورة من صور العلم ، أسلوب من أساليب العلم .

والواقع أن القرآن يحدثنا فى عهد « سليمان » عن حضارة قوية مزدهرة ؛ يقول الذى عنده (علم من الكتاب) ؟ « ليس هذا العلم من الوحى ، وليس هذا العلم من الكرامات ، وليس هذا العلم من المعجزات ، وإنما هو من الكتاب . ومعنى ذلك أن العلم بسلطانه . ولقوته وبالتغلغل فيه ، وبالتعمق فيه ، يصل إلى أكثر مما يصل إليه مردة الجن والشياطين . فيما يتعلق بقدرته فى الأشياء ، وسواء اتفق المفسرون على هذا الأسلوب من التفسير . أو لم يتفقوا . فإنه من غير ما شك ، نوع من التفسير وإن لم يتفق عليه الجميع .

ويتحدث القرآن عن العلم ، عن طريق القصص ، ويتحدث القرآن عن العلم بالأسلوب المباشر . وأصل مباشرة ، إلى آيتين من الآيات الكثيرة الموجودة فى القرآن والتى تشيد بالعلم والعلماء .

أما أولا : فإن الله سبحانه وتعالى ربط خشيته بالعلم ، (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وأعجل فأقول إن هذه الكلمة القرآنية أتت فى معرض الحديث عن العلوم الكونية ، عن العلوم المادية ، عن الجبال والغرابيب السود ، والألوان واختلاف الأجناس ، وبعد أن تحدث عن الكم ، عن النواحى المادية قال سبحانه وتعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) هذه العلوم الكونية كان يسميها أسلافنا رضوان الله عليهم تسمية دقيقة جميلة . كانوا

يسمونها علوم الكشف عن سنن الله الكونية . ولله سنن فى الكون كما له سنن فى المجتمعات . وإذا ما اكتشفت هذه السنن الكونية لله سبحانه وتعالى فى الكون . فإننا نزداد علماً به ونزداد إذن خشية له (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) .

وآية أخرى ، تصل بالعلماء إلى ما لم يصل بهم مذهب قديم أو حديث أو نحلة قديمة وحديثة . لا فى الشرق ولا فى الغرب . يقول الله سبحانه وتعالى : (شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلَهَ إلا هو) ، « التوحيد » هو « لا إله إلا هو » . من الذى شهد مع الله سبحانه وتعالى « التوحيد » « الملائكة » . ومن الذى شهد مع الله ومع ملائكته « التوحيد » ؟ (**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم**) ، قرن أولى العلم به سبحانه وتعالى وبملائكته . فى ماذا ؟ فى « أشهد أن لا إله إلا الله » وهى قمة الإيمان . وقمة التوحيد : « أشهد أنْ لا إله إلا الله » ، إنها ليست : أقول لا إله إلا الله ، ولا أنطق بلا إله إلا الله . ولا أقتنع بلا إله إلا الله ، ولا أومن بلا إله إلا الله . ولا أعتقد بلا إله إلا الله . وكل هذه الصيغ من التعبير جميلة . ولكن القمة التى طالبنا الإسلام بها ، والتى وصل العلماء إليها ، والتى قرن الله سبحانه وتعالى العلماء به وبملائكته فى شهادتها هى « أشهد أنْ لا إله إلا الله » وهى قمة الإيمان . ولن تجد مطلقاً فى الماضى ولا فى الحاضر ، ولا فى الشرق ولا فى الغرب ، لن تجد إشادة بالعلم كهذه الإشادة . أى علم ؟ أى علم يقصده القرآن ؟ إنه كل ما يبين قوانين الله سبحانه وتعالى فى الكون . وبيان قوانين الله سبحانه وتعالى فى الكون من الناحية الروحية المعنوية ، ومن ناحية المجتمع بينها القرآن وبينتها السنة .

وقوانين الله سبحانه وتعالى فى الكون المادى ، ترك الله سبحانه وتعالى للإنسان الحرية المطلقة . فى أن يبحث فى أرجاء الكون ما شاء ، وأن يسير فى

الكون حسبما أراد ، وأن يكون الكون كله مجالا لأبحاثه ، ولم يقيده القرآن إلا بشيء واحد ، قيده بأن تكون أسسه : أسس البحث ، وغايات البحث متجهة إلى الله سبحانه وتعالى ، وليست متجهة إلى تدمير أو غلبة أو استعلاء ، وإنما هي متجهة إلى الله سبحانه وتعالى : إلى الفضيلة ، إلى إسعاد الإنسانية ، إلى هذه النواحي التي تفيد الإنسانية فيما يتعلق بسعادتها ، ولا تضر الإنسانية أو تشقيها . هذا هو القيد الوحيد الذي قيد الله سبحانه وتعالى به العلم .

ورسول الله ﷺ . يتحدث عن العلم . وحديثه الجامع عن العلم معروف . حديثه الذي رواه الترمذي ، ورواه غير الترمذي ، الذي يجعل طريق العلم طريقاً إلى الجنة . فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً ، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة . وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء . وفضل العالِم على العابد . كفضل القمر على سائر الكواكب . وإن العلماء ورثة الأنبياء . وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم . فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

واندفعت الأمة الإسلامية متأثرة بالقرآن . متابعة للقرآن . معترفة بأن شعارها هو شعار رسولها الكريم الذي كان (رب زدني علما) . ومعترفة بأن شعورها وطابعها هو : « من استوى يوماه . في العلم أو الفضيلة فهو مغبون . ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان » . اندفعت الأمة الإسلامية في العلم : تفسيراً ، وحديثاً . وفقهاً . وأصول فقه . ولكنها بجوار ذلك . ومنذ أن بدأت أيضاً . اندفعت نحو العلم في خبايا الكون . وزوايا الوجود المادي : تكتشف وتبحث وتفحص وتجرب وتنظر وتستقرئ . وكل ذلك حدث فكانت النهضة

الإسلامية الكبيرة . وكان هناك أعلامها . أعلام هذه النهضة الذين لا يعدون بالعشرات وإنما يعدون بالمئات . كان هناك أعلامها فى الرياضة . وكان هناك أعلامها فى الطب . وكان هناك أعلامها فى الهندسة . وكان هناك أعلامها فيما يتعلق بمختلف العلوم على شتى نواحيها . وكانت الحضارة الإسلامية هى الأساس الذى قدم للغرب فأخذه الغرب من ناحيته المادية . ولم يأخذه بقيد الله سبحانه وتعالى . من ناحية الأسس أو من ناحية الأهداف -- لم يأخذه بهذا القيد : قيد الخير والفضيلة والرقى بالإنسانية – وإنما أخذه مطلقاً . فكان التدمير أثراً من آثار علم الغرب . وحضارة الغرب . وكانت هذه المآسى التى شقيت بها الإنسانية من آثار هذا العلم . لأنه كما يقول الغربيون أنفسهم يقولون إنها حضارة شيطانية . لأنها لا تنتسب إلى أصل أخلاق . ولا إلى أصل روحى . ولا إلى أصل دينى .

يقول الكثيرون من المتزنين فيما يتعلق بالحضارة الغربية . يقولون إنها حضارة شيطانية . لأن الحضارة الصادقة . هى ما يكون فيها الناحية الروحية والناحية المادية .

الناحية الروحية التى تسيطر عليها فى التوجيه . وفى التنظيم . وفى الاستعمال . والناحية المادية التى تفيد فى كشف القوانين المادية . ومن أجل ذلك كانت الحضارة الإسلامية متكاملة . وإن كان الله سبحانه وتعالى قد بدأ بقوله : « اقرأ » . فإنه أتبع ذلك مباشرة بقوله : (باسم ربك) . فكان هناك العلم فى الكلمة الأولى . وكان هناك الإيمان فى الكلمتين الثانيتين . (اقرأ) لم يطلقها وإنما قيدها (باسم ربك) . وإذا أنت تبصرت فيما يتعلق بهذه الكلمات الثلاث (اقرأ باسم ربك) . وجدت أن (اقرأ) تعنى . لغة . الأمر بالقراءة . ولكنها

فى حقيقة الأمر رمز لكل عمل يأتيه الإنسان . والمعنى الحقيق لهذا الرمز (اقرأ باسم ربك) ، « اعمل باسم ربك » « قم باسم ربك » ، « إذا تحركت فتحرك باسم ربك » ، « وإذا سكت فاسكت باسم ربك » ، « وإذا قلت فقل باسم ربك » ، « وإذا صمت فاصمت باسم ربك » (اقرأ باسم ربك) إنها رمز لكل عمل يأتيه الإنسان ، ومن أهم هذه الأعمال العلم ، ولذلك كانت الكلمة التى تعبر عن العلم هى الكلمة الرمزية فى هذا المجال . ولم يقل الله فى هذه الكلمات الأولى « اقرأ باسم الله » ، وإنما قال : (اقرأ باسم ربك) . وأنا شخصيًا فى حقيقة الأمر كنت أتوقع لأول وهلة بالنظرة القاصرة – نظرة الإنسان عادة – كنت أتوقع أن يقول : (اقرأ باسم الله) . ولما فكرت فى الأمر رأيت الحكمة الحكيمة لله سبحانه وتعالى حينما يقول : (اقرأ باسم ربك) . اقرأ باسم المربى ، اقرأ باسم التربية التى ستأتى . أنت فى حرية مطلقة قبل أن تدخل فى هذا الدين ، فإذا دخلت فيه يجب أن تلتزم من المبدإ بتربية المربى . وجاءت تربية المربى تتوالى فى الجو الإسلامى ، تتوالى فى صورة تشريع . وتتوالى فى صورة أخلاق ، وتتوالى فى صورة عقائد ، وتتوالى فى صورة تنظيم المجتمع ، وتتوالى فى صورة الثقة بالله سبحانه وتعالى ، وإلى أى مدى هذه الثقة تكون : (اقرأ باسم ربك) ، أما ما لم يكن باسم ربك فإنه ليس بإيمان ، وما لم يكن باسم ربك كالذبيحة تذبح على النصب فهو فسق . يقول تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) ، وكلمة فسق هنا لا تختص بما ذبح على النصب فقط ، أو بما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح فقط . وإنما كل أمر لا يصدر على النية الخالصة لله ، فإنه فى العرف الإسلامى فسق ولو كان عمل خير .

إن هناك تفرقة بين الوثنية والإيمان ، يجب أن نتدبرها . ما هى الوثنية ؟ هى ما يصدر عنا لا نريد به ، أو لا نذكر عليه اسم الله . أو تكون نيتنا فيه غير صادرة عن الأسس الإسلامية ، وكل ما كان غير صادر عن المبادئ الإسلامية فهو وثنية . أما الإيمان فإنه الصدور عن الله سبحانه وتعالى : عن قرآنه وعن سنته .

وكل عمل إذن ليس صادراً : فى النية أو فى الموضوع عن الجو الإسلامى . فإنه يعتبر وثنية وكل وثنية هى فسق ، لأنه لا يذكر اسم الله عليها ، ولا يصدر الإنسان فيها عن الدين .

أيها الإخوة المؤمنون :

أطلق الله سبحانه وتعالى الحرية للإنسان فى العالم المادى ولم يقيده إلا بهذا القيد . قيد أن تكون النية فيه لله سبحانه وتعالى . ولكنه سبحانه وتعالى فيما يتعلق بالعقائد . وفيما يتعلق بالتشريع ، وفيما يتعلق بالأخلاق . حسم الأمر حسماً كاملا تامًّا ، لا لبس فيه ولا شائبة فيه . يجب على الأمة الإسلامية وجوباً مطلقاً أن تصدر فيما يتعلق بنظام مجتمعها . وفيما يتعلق بأخلاقها . وفيما يتعلق بعقائدها . وفيما يتعلق بتشريعها .. أن تصدر عن الله سبحانه وتعالى .

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى رسالة هى آخر الرسلات ، وتعليل أنها آخر الرسالات أمره سهل . إن الكتب السابقة التى كانت تحتوى الرسالات كانت تغير وتبدل وتتناقض وتتعارض وتختلف بعمل الإنسان . فكان من الطبيعى أنه حينما تندثر هذه الكتب وتزول . تصبح الرسالة وقد زالت . وكان لابد إذن من هداية الإنسان برسالة أخرى . وأحب الله سبحانه وتعالى أن تختتم الرسالات بمحمد - ﷺ » . فأنزل عليه كتاباً ضَمِن حِفْظَه (إنا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ

وإنَّا لَهُ لحافِظُونَ) ، هذا الكتاب هو الرسالة الدائمة الخالدة . فليست الإنسانية فى حاجة إلى رسالة أخرى . ليست فى حاجة إلى « بهائية » ، وليست فى حاجة إلى « قديانية » ، وليست فى حاجة إلى مزيفات كمزيفات « مسيلمة » الكذاب ، أو « سجاح » الكاذبة . ليست الإنسانية فى حاجة إلى مزيفات من أمثال هذه . لأن عندها كتاب الله .

من المميزات الضخمة الهائلة للغة العربية وللمسلمين ، أن أنزل الكتاب الكريم بها . إنها اللغة الوحيدة فى العالم . التى تتضمن أسلوب الله سبحانه وتعالى . التى فيها النص المقدس الذى هو كلام الله سبحانه وتعالى . ومن أجل ذلك فإنه منذ نزول القرآن بها أصبحت لغة مقدسة . وكل تهريج من هؤلاء الذين يريدون أن يبتعدوا عنها فى اللهجة أو فى الكتابة . إنما هو ابتعاد عن الروح الحقيقية للجو الإسلامى .

ومن المميزات الضخمة الهائلة للمسلمين . أنهم يستمدون دينهم من الأسلوب الإلهى . إنهم يأخذونه عن القرآن . وليس هناك نحلة أخرى أو مذهب آخر يستمد عقيدته أو أخلاقه أو تشريعه . عن الأسلوب الإلهى . إن القرآن ميزة ضخمة للمسلمين كمصدر لحياتهم . إنه مصدر بالأسلوب الإلهى . وميزة ضخمة للغة العربية . لأنها أصبحت هى اللغة الوحيدة التى تحتوى على نص مقدس بالأسلوب الإلهى نفسه . ومنذ نزول القرآن أصبحت اللغة العربية لغة الإسلام . إنها قبل نزول القرآن . كانت لغة الجزيرة العربية : لغة إقليمية . أما بعد نزول القرآن . فإنها أصبحت لغة الإسلام لأنها لغة القرآن .

أيها الإخوة المؤمنون :

ويسير القرآن والرسول ﷺ فى طريق واضح من ناحية التشريع : لسر

للإنسان حرية التشريع . له حرية الشرح . له حرية الاستنتاج . ولكن حرية التشريع ليست له . وقد كتب « الإمام الشافعى » رضى الله عنه بالنسبة لتوضيح قواعد استنتاج التشريع . هذا العمل العظيم الذى نسميه فى صراحة منطق المسلمين . إنه ألف عبقرية مبتكرة – « أنا لست شافعى المذهب . وهذا إذن ليس مدحاً منى للإمام الشافعى من أجل اعتناق لمذهبه » – ألف فى عبقرية مبتكرة ، أصول الفقه . وكان هذا الابتكار ضخماً . هائلا . إنه يعتبر فترة من الفترات التى تجلى الإلهام الإلهى فيها على الإمام الشافعى فصنع ما صنع .

إن الإنسان لا حرية له فيما يتعلق بالتشريع . وليس أمر التشريع موكولا إلى الإنسان . وإنما هو موكول إلى الله سبحانه وتعالى . هذا التشريع طُبِّق فى الجو الإسلامى . إنه لم يعد نظرية غير مطبقة . وكل من يهرج فيقول : إن هذا التشريع خيال لايطبق . يكذبه . أنه طبق وأصبح واقعًا . لقد خرج من نظرية إلى واقع ، ومن مبادئ إلى تطبيق . إنه لم يعد كلامًا فحسب . لقد أصبح واقعًا بدل أن يكون نظرًا فحسب . أو كلامًا فحسب .

مجتمع إسلامى كان خير مجتمع أخرج للناس . . . وقد بين الله سبحانه وتعالى لنا فى صور حاسمة الموقف بالنسبة للتشريع الإلهى ، إنه سبحانه يقول : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) . ويقول : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) ، ويقول : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، ويقول : (فلا وربِّك لايُؤمِنونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لايَجِدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حرجًا مما قَضَيتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . هذا فيما يتعلق بالتشريع . إنه لايتأتى مطلقًا أن يدور فى خلد مسلم صادق الإيمان . أن

تكون الشريعة الإسلامية المصدر الأساسى للتشريع كلا . وإنما الشريعة الإسلامية هى المصدر الوحيد للتشريع ، هذا هو شعور المؤمن الصادق الإيمان ، وهذا هو ماتعبر عنه فى صدق وفى إخلاص وفى حسم هذه الآيات التى تحدثنا عنها ، والتى وصف الله سبحانه وتعالى فيها من لم يحكم بما أنزل الله ، لقد وصفه مرة بالظلم ، ثم زاد هذا الوصف فوصفه بالفسق ، ثم فى النهاية وصفه بالكفر ، ومامن شك فى أن من يحيد عن التشريع الإلهى مختارًا غير مضطر ، فإنه ظالم وهو فاسق وهو كافر ، وهذا هو وصف الله سبحانه وتعالى وليس وصفنا نحن .

وكان الموقف حاسمًا أيضًا فيما يتعلق بالأخلاق ، فإن الأخلاق الإسلامية ، يجب أن تكون كما هى فى الجو الإسلامى ، وكان الموقف حاسمًا فيما يتعلق بنظام المجتمع ، ولابد أن نسير فى نظام مجتمعنا على حسب مارسمه الإسلام لنظام المجتمع ، وهكذا الأمر أيضًا فيما يتعلق بالعقائد .

أيها الإخوة المؤمنون :

إن الغرب فيه ثقافة وفيه العلم المادى ، والإسلام – كما قلنا – أطلق لنا العنان فيما يتعلق بالعلم المادى بالقيد الذى ذكرناه ، ولابد أن نغترف منه أينما وجدناه ، ولكننا لا نغترف فحسب ، وإنما نغترف ونطور ونخترع فيه ، ونبتدع ونكون من المنشئين له المطورين له ، المبتدعين له ، نكون من أعلامه بل فى قمة أعلامه .

أما فيما يتعلق بالذاتية الإسلامية ، والذاتية الإسلامية تعنى تشريعًا وتعنى نظام مجتمع وتعنى نظام عقائد ، وتعنى أخلاقًا فإنه لابد وأن نأخذها من

الإسلام . إن الحضارة الغربية فى قسمها الثقافى زيفت تزييفًا كاملا . ونضرب بعض الأمثلة :

« علم الاجتماع » ، وعلم النفس » . من الذى يدرسها فى أوربا وأمريكا فى العصر الحاضر ؟ أكثر من ثمانين فى المائة من أساتذتها هم من اليهود . وقد وضعوا الخطة محكمة متعمدين أن يستولوا على كراسى الجامعات فى هاتين المادتين بالذات « علم النفس » وعلم الاجتماع » وعلم النفس الذى خرج إلى التجربة فأصبح ماديًا لا يعبأ به أساتذة اليهود . وإنما يعبئون بعلم النفس الذى مازال نظريات مثل : كيف نشأت الأديان ؟ الأخلاق كيف تقوم ؟ ماهو المصدر للأخلاق ؟ ماهو المصدر للدين ؟

إن هذه كلها نظريات . ومن أجل ذلك يتحدثون عنها . ويذكرون آراء يتعمدون التزييف فيها . ويحاولون بذلك أن يفسدوا على الإنسانية عقائدها وأخلاقها وتشريعها ، عن طريق علم النفس . وعن طريق علم الاجتماع لأنها نظريات يمكن لك أن تبرهن بأسلوب شيطانى على صدق بعضها . تحدثوا عن نشأة الأديان . وكأن الله سبحانه وتعالى غير موجود . وهكذا الأمر فى كل هذه النواحى . أفسدوا على شباب الجامعات فى أوربا وأمريكا دينهم وأخلاقهم . وهم يبغون من وراء ذلك - وهذا من المعروف - أن يفسدوا على الإنسانية . « مسيحية ومسلمة » . وكل نِحْلة من النِّحل أن يفسدوا عليها أخلاقها ، وأن يفسدوا عليها دينها لتتحلل وتفسد ، ويسيطروا هم من وراء كل ذلك .

إنهم يقولون فى هذا الكتاب الذى يجب أن يقرأه المسلمون جميعًا : كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » يقولون مثلا نحن الذين ربينا نجاح « كارل ماركس » و « كارل ماركس » يقول : إن الدين أفيون الشعوب . ولما قيل له

لكن الإنسانية لا تستغنى عن عقيدة . فما هو البديل لعقيدة الألوهية ؟

فقال بصراحة : « البديل عن عقيدة الألوهية المسرح . الهوهم فى المسرح . افتحوا المسارح . واجعلوهم يتناقشون فى التمثيليات وفى الروايات . فذلك يصرفهم عن الله سبحانه وتعالى ... » نحن الذين رتبنا نجاح « كارل ماركس » ، هذا مايقوله اليهود . رتبوا نجاحه بالمقالات . بالصحف . بكل وسيلة من الوسائل . ويرتبون نجاحه فى الجامعات عن طريق علم الاجتماع . ونحن الذين رتبنا نجاح « فرويد » صاحب « نظرية الجنس » . يقول لك : « إنك تعتقد أنك تسير بحسب مثل عليا ، وبحسب فضائل وماشاكل ذلك . كلا إن الذى يسيرك الغريزة ، الجنسية » . إنه ينحط بالإنسانية إلى مستوى أقل من مستوى الحيوانات . ومن أجل ذلك رتبوا نجاحه . لأنه يجعل أنْ لا مكان لشىء اسمه الفضيلة أو لشىء اسمه الكرامة ، أو لشىء اسمه المثل العليا . إنه جعل كل سبب وكل علة للسلوك الإنسانى إنما هى الغريزة الجنسية . ورتبوا نجاحه أيضًا فى الصحف والمجلات بالمقالات . بالكتب ، لا بالعشرات وإنما بالمئات فى بيان نظريته : لأنها أيضًا نظرية تفسد على الإنسانية أخلاقها ومثلها العليا وفضائلها . وأخذوا يستفيضون فى تدريس نظريته فى علم النفس . ونحن الذين رتبنا نجاح « نيتشه » و « نيتشه » أنكر الأخلاق الفاضلة على الإطلاق . إنه يقول : « إن مايسمونه الأخلاق الفاضلة ضعف ، وأنه إذا تيسر لك أن تذبح ، أو تزنى ، وأن تسرق وأن يكون استمتاعك فى هذا . وأن تسيل الماء أنهارًا . وأن تمشى على رءوس بنى البشر فافعل » . ومن أجل ذلك أيضًا رتبوا نجاحه بكل الوسائل الممكنة .

ونحن الذين رتبنا نجاح « داروين » . إن هذه اعترافاتهم وليست من

عندى ، و « داروين » يقول بنظرية « التطور » ، ونظرية التطور ليست نظرية ثابتة ، فإنها تقول : « إن الإنسانية متطورة فى عقلها ، وفى تفكيرها » . ومعنى هذا أنه ليس هناك قضية مطلقة ، لا فى الأخلاق ، ولا فى التشريع ولا فى العقائد . ليست هناك قضية مطلقة ثابتة فيما يتعلق بهذه المجالات ، وإنما هذه القضايا فى هذه المجالات تتبع رقى الإنسانية ، فما هو حقيقة اليوم سيكون فى الغد غير صحيح . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالتطور . إنه مامن شك فى أن هناك التطور المادى ، هناك التطور من الإبرة إلى ماكينة الخياطة ، وهناك التطور من وابور الغاز إلى البوتاجاز ، وهناك التطور فى وسائل المواصلات التى لا حصر لها ، هناك تطور مادى ، وهذا ما لا ينكره منكر ، ولكن هذا شىء . . وكون الإنسانية تتقلب فى عقلها وفى ذكائها من طور إلى طور هذا شىء آخر . وإذا كان الأمر الأول صحيحا أوصادقًا ، فيجب ألا نأخذه مثلا للفكرة الثانية . وهى تطور الإنسانية كإنسانية ، إن تطور الإنسان كإنسان ، تطور فى عقله ، تصور فى ذكائه .

لم يحدث أن التطور حدث فى الوسائل التى يسير عليها المجتمع ، والتى يسير بحسبها المجتمع . لو أخذت طفلا من أرقى البيئات الأمريكية حضارة ، ووضعته فى مجاهل أفريقيا سينشأ طفلا فى المجاهل والغابات ، سينشأ طفل غابة ، لاعلاقة له بحضارته الأصلية ، وإذن ليس هناك فى حقيقة الأمر تطور فيما يتعلق بالعقل . ولن تكون الإنسانية شيئًا آخر غير كونها إنسانية . وفكرة التطور ، فضلا عن ذلك ، تحدث عنها كبار المفكرين الأوربيين ، وقالوا إنها ليست بنظرية ثابتة . وإن الإنسانية باعتبارها إنسانية لم تتطور فيما يتعلق بالنشأة عن خلية ، ثم عن كذا ، ثم عن كذا ، إلى أن وصلت إلى الإنسان . قالوا إن هذا وهم واهم

بالأدلة الثابتة عندهم .

ومن غريب الأمر أننا نستعمل كلمة التطور فيما يتعلق بالإنسانية بمحيطاتنا الإسلامية ، وسيطرت علينا الكلمة . وكأنها حقيقة ، وكما تأثرنا فى كثير من الآراء ، آراء « فرويد » أو آراء « كارل ماركس » تأثرنا أيضًا بنظرية التطور ، واستعملناها فى كتاباتنا ، ومن ورراء كل ذلك اليهود . إنهم يحبون أن يفسدوا على الإنسانية أخلاقها ودينها .

أيها الإخوة المؤمنون :

يتلخص فى النهاية الذى أريده . أنه من أجل نهضة الأمم الإسلامية يجب نأخذ بالعلم المادى إلى أقصى مايمكن أن نأخذ به فى هذا الجانب المادى . أما الجانب الآخر : الروحى والاجتماعى ، فإننا نأخذ بما رسمه الله سبحانه وتعالى فى الأخلاق . ومارسمه الله سبحانه وتعالى فى التشريع . ونأخذ بما رسمه سبحانه وتعالى فى العقائد . ونأخذ بمارسمه الله سبحانه وتعالى فى نظام المجتمع ..

لايتأتى مطلقًا لأمة مسلمة أن تحيد عنه وإلا تخلت عن رسالتها ، وأعود فأكرر ماقلته إن المبرر الوحيد لوجود الأمة الإسلامية إنما هو هذه الرسالة ، آخر الرسالات .. ، هذه الرسالة التى كُلِّفت بها . فإذا تخلت عنها فإنها تصبح ولا رسالة لها .. ومع كل فإننا متفائلون بإذن الله .

وإننا نرى على مر الزمن نوعًا من البعث الإسلامى ، هذا البعث الإسلامى يقوى إذا تكاتف هؤلاء الذين يدعون إلى النهضة الإسلامية الحقيقية ، إذا تكاتفوا وتعاونوا ، وأصبحت تربط بينهم وبين بعضهم الصلات الوثيقة فإن هذا البعث يقوى بإذن الله .. وكفى بربك هاديًا ونصيرًا . .

هذا وبالله التوفيق .